المحاضرة الخامسة: نشاط الحركة الوطنية التونسية خلال الحرب العالمية الأولى 1914-1919م.

أولا: نشاط الشباب التونسي في المنفى خلال الحرب العالمية الأولى.

ثانيا: ركود الحركة الوطنية التونسية خلال الحرب العالمية الأولى.

1-أسباب الركود.

1-1-الأسباب السياسية.

1-2-الأسباب الاقتصادية والاجتماعية.

ثالثا: السياسة الاستعمارية الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى وتداعياتها على الحركة الوطنية التونسية.

1-السياسة الاقتصادية.

2-السياسة الدينية والثقافية.

رابعا: التأثيرات الغربية والمشرقية على إعادة بعث الحركة الوطنية التونسية.

1-مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسن.

2-ثورة أكتوبر 1917م.

3-أحداث تركيا.

4-تحرير مصر.

5-أحداث طرابلس.

أولا: نشاط الشباب التونسي في المنفى خلال الحرب العالمية الأولى:

بعد انتفاضة الزلاج (7-8 نوفمبر 1911م) وانتفاضة الترمواي سنة 1912م؛ بدأت مرحلة دخول النضال التونسي الوطني إلى مرحلة المواجهة الفعلية التي تميزت ببروز الجماهير الشعبية على الساحة السياسية، مما خلف صدمات دامية سقط فيها عديد الشهداء وتشريد رجالات حركة الشباب التونسي ونفي زعمائها وإيقاف الصحف[1].

ورغم إجراءات العفو الصادرة في حق زعماء حركة الشباب التونسي من طرف إدارة الحماية، فإن أبرز زعيم لها "علي باش حامبه[2]"؛ لم يعد إلى تونس واكتفى بالمكوث خارجا من أجل الدفاع عن القضية التونسية والمغاربية، وبهذا الموقف واصلت الحركة الوطنية التونسية نشاطها بالخارج –خلال الحرب العالمية الأولى؛ تحت زعامة كل من: علي باش حامبه، محمد باش حامبه، صالح الشريف، إسماعيل الصفايحي، محمد الخضر حسين- في نطاق حركة الجامعة الإسلامية[3] التي تهدف إلى توحيد كلمة المسلمين كافة تحت سلطة الخليفة؛ لمحاربة أعداء الإسلام بمساندة كل من تركيا وألمانيا ولهذا

---

[1] مجموعة مؤلفين: المرجع السابق، ص 55.

[2] علي باش، حامبه: ولد بمدينة تونس سنة 1876م، ينحدر من أسرة تركية عريقة من سكان الأناضول، درس بالمعهد الصادقي، وبعد تخرجه منه، دعي للإشراف على إدارة المعهد بصفة "وكيل"، تحصل على إجازة في الحقوق هذا إلى جانب قيامه بنشاط سياسي كبير، حيث أسس سنة 1907م جريدة التونسي وفي سنة 1911م أسس جريدة الاتحاد الإسلامي، أبعد عن تونس في مارس 1912م، استقر باسطنبول أين أوكلت إليه السلطات التركية خططا إدارية، توفي بتركيا في 29 أكتوبر 1917م؛ ينظر: الصادق، الزمرلي: **المرجع السابق**، ص-ص 143-158.

[3] الجامعة الإسلامية: هي حركة تدعوا إلى تضامن المسلمين، من أجل الوحدة في مواجهة الاستعمار، وتقوم على الإصلاح الديني والاجتماعي والعودة إلى عصر السلف الأوائل، ظهرت خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشرة، وأصحاب الحركة هم: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، وقد تبنى الحركة عبد الحميد الثاني سلطان الدولة العثمانية، للمزيد من التفاصيل حول تأسيس ودور الجامعة الإسلامية؛ ينظر: أنور، الجندي: **الموسوعة الإسلامية العربية**، ج4، **العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي**، ط2، دار الكتب اللبناني مكتبة المدرسة، بيروت- لبنان، 1983م، ص-ص 175-194.

الغرض شارك وفد من شمال إفريقيا في المؤتمر الإسلامي، الذي عقد بالأستانة سنة 1915م (أعضاء الوفد المغاربي: الشيخ العنابي، علي باش حامبه، شكيب أرسلان)[4] .

وقد قام هذا النشاط على أساس ما يلي:

*القيام بالدعاية في صفوف الجنود الأسرى من شمال إفريقيا لدى الألمان؛ من خلال التركيز على الوحدة الإسلامية وبالتالي الانضمام إلى الصفوف التركية، وكذلك معاملة الأسرى المغاربة معاملة خاصة مع التسويق لحسن العلاقات التاريخية التي ربطت ألمانيا بالخلافة العثمانية.

*الدعاية ضد سياسة الدول المستعمرة داخل المستعمرات بالخصوص التابعة لفرنسا وبريطانيا.

*محاولة إثارة شعوب المستعمرات ضد الدول المستعمرة[5].

وبسبب هذه التسهيلات؛ تكونت ببرلين في 7 جانفي 1916م، لجنة لاستقلال الجزائر وتونس[6] برئاسة "صالح الشريف" و"ومحمد مزيان التلمساني" و"إسماعيل الصفائحي" ومهمتها تحرير المنشورات والكتابات الدعائية باللغة العربية واللغتين الفرنسية والألمانية، لصالح قضايا المغرب العربي والعالم الإسلامي[7].

خصوصا من خلال مجلة "المغرب وعددها الأول في شهر ماي 1916م التي ترأسها "محمد باش حامبه"؛ الذي أظهر انشغالات اللجنة المشتركة بالنضال الشمال الأفريقي "...**إن مسلمي شمال إفريقيا منشغلون بمصيرهم وهم يعلمون لمستقبلهم، وإذا كانوا لا يأملون في الانفصال عن**

---

[4] عطاء الله، فشار: **النخبة الجزائرية جذورها، تطورها، اتجاهاتها 1914-1954م**، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بن يوسف ين خدة، الجزائر، 2008-2009م، ص 138.

[5] علي، المحجوبي: **جذور الحركة الوطنية التونسية...، المرجع السابق**، ص-ص 153-154.

[6] D.goldstein : **Libération ou annexion 1914-1922** , D'édition maison tunisienne ,tunis,1978,p43.

[7] محمد، بلقاسم: **الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي 1328-1373هـ/1910-1954م**، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1993-1994م، ص49 .

الدولة المستعمرة فهم يفكرون على الأقل في الحصول على تغيير النظام المفروض عليهم..."[8].

ومن أهم نشاطات هذه اللجنة، مطالبة "مجلة المغرب" في نهاية 1917م –بعد تولي "جورج كليما نصو" و"ستيفان بشون"؛ رئاسة وزارة الشؤون الخارجية بفرنسا وهما المعروفان بأرائهما التحررية–باسم التونسيين بإصدار دستور يمنح ما يلي:

–ضمان الحريات والحقوق الفردية.

–الفصل المطلق بين السلطات.

–إلغاء كل نظام استثنائي ومساواة الجميع أمام قانون موحد.

–إحداث مجلس تشريعي وما لي منتخب.

–تنظيم البلديات وإحداث مجالس بلدية مختلطة.

–إحداث مجالس إقليمية منتخبة[9].

وأيضا إرسال مذكرة إلى مؤتمر باريس الذي انعقد في جانفي 1919م، ضمت مجموعة من المطالب؛ أهمها:

–التنديد بنظام الاستبداد والعنف والسلب الفرنسي، المفروض على الشعبين الجزائري والتونسي.

–المطالبة بحق تقرير مصير البلدين مع باقي دول شمال إفريقيا.

–المطالبة بالاستقلال التام.

–توجيه تأنيب للضمير العالمي بالمطالبة بتقرير المصير والحرية.

كما أرسلت اللجنة وثيقة إلى الرئيس الأمريكي "ويلسن" في جانفي 1919م، حملت هي الأخرى حملت في طياتها مجموعة من المطالب، تمثلت في:

---

8 محمد، بوطيبي: **دور المثقفين الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية ما بين 1900–1930م**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة–الجزائر، 2012م، ص87.

9 علي، المحجوبي: **جذور الحركة الوطنية التونسية...**، **المرجع السابق**، ص–ص 149–150.

-التنديد بالسياسة الفرنسية المتبعة في البلدين.

-المطالبة بإيفاد مبعوثين شرعيين من طرف مؤتمر الصلح للدفاع عن قضيتهم.

-إقامة نظام جديد يخول للجزائريين والتونسيين، الحصول على حقوقهم[10].

ومن خلال هذه المطالب نلاحظ؛ تطور وانتقال الأفكار والمطالب، من مطالب بإحداث دستور إلى فكرة الاستقلال في نطاق الأمم المتحدة والظاهر أيضا؛ أنه ورغم الحظوة التي كان يتمتع بها هؤلاء "الشباب التونسي" في تونس، فإن نشاطهم في الخارج لم يؤثر إلا في عدد قليل من السكان المسلمين، إذ بقيت أغلبيتهم الساحقة هادئة طيلة الحرب العالمية الأولى وإن لم نقل غير مبالية.

ثانيا: ركود الحركة الوطنية التونسية خلال الحرب العالمية الأولى:

1-أسباب الركود:

1-1-الأسباب السياسية:

*خروج "حركة الشباب التونسي"؛ منهكة جراء رد فعل الإدارة الفرنسية عن أحداث 1911م و1912م؛ حيث عملت الإدارة على فرض حالة الحصار على مدينة تونس في نوفمبر 1911م، ثم تعميم الحصار ليشمل كل البلاد التونسية في 2 أوت 1914م.

*تعطيل الإدارة الفرنسية للجرائد؛ الناطقة باللغتين —العربية والفرنسة- وبالتالي تجريد الحركة من أهم سلاح لها وهو الوسيلة الوحيدة للاحتكاك بالشعب التونسي.

*نفي قادة الحركة إلى خارج تونس؛ مما أفقد حيوية ونشاط الحركة الوطنية.

*تشديد إدارة الحماية الرقابة على كل الأفكار التي تسوقها الجامعة الإسلامي؛ المرتبطة بتركيا المعادية لفرنسا، فلم تكن تقبل أي نقد ولو كان صغيرا.

10علي، المحجوبي:**جذور الحركة الوطنية التونسية 1904-1934م**، تعريب: عبد الحميد، الشابي، ط1، شركة أوربيس للطباعة، قصر سعيد-تونس، 1999م، ص-ص 217-218.

* انطواء زعماء الحركة على أنفسهم؛ طيلة الحرب مع اتخاذهم خطة انتهازية، قائمة على نتائج نهاية الحرب؛ إذ نجد أنهم حددوا موقفين مختلفين-يؤخذ بواحد منهما بعد نهاية الحرب- وهما:

م1: مبني على انتصار الحلفاء، فتستغل الحركة هذا النصر، من اجل الاعتزاز بحسن سلوك التونسيين طيلة الحرب، وما بذلوه من تضحيات ما دية وبشرية لفائدة فرنسا وبالتالي المطالبة بحقوق البلاد التونسية.

م2: مبني على انتصار امبراطوريات الوسط، وهنا تذكرهم الحركة بالإهانات والمظالم التي تكبدها الشعب التونسي أثناء الحرب العالمية الأولى، وأيضا تذكيرهم بأن الجنود الفرنسيين المشاركين في الحرب قد جندوا قهرا وأن حالة الخمول خلال الحرب؛كانت نتيجة حالة الحصار المفروضة على البلاد، وأنهم كانوا في انتظار وصول الجيوش الألمانية-العثماني إلى الحدود التونسية من أجل الانضمام إليها .

*الوعود والتصريحات التي قدمها الحلفاء وبعض الشخصيات السياسية الفرنسية عن الحرب وسوقوا لها على أنها من اجل حقوق الإنسان وتحرير الشعوب، مما جعل العديد من الوطنيين التونسيين يعلقون الأمل عليها.

*عدم وجود قائد تونسي ينظم ويؤطر الشعب التونسي؛ خلال الحرب وبالتالي فإن الشعب التونسي قد ترك لحاله.

*إفراغ البلاد من الشباب من خلال تجنيدهم إلى جانب الحلفاء.

1-2-الأسباب الاقتصادية والاجتماعية:

لقد ساهم تقلص التناقض؛ بين مصالح مختلف شرائح المجتمع التونسي مع مصالح الإدارة الاستعمارية الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى وهذا ما ساهم في ركود الحركة الوطنية، ومن بين الأسباب المساهمة في ذلك نجد ما يلي:

-عملت إدارة الحماية على خلق نوع من الهدنة، بسبب ضمان اخلاص التونسيين أثناء الحرب من خلال تخفيف حدة السياسة الاستعمارية المطبقة في مختلف المجالات.

-بسبب سياسة تجنيد فرنسا للعديد من المعمرين الفرنسيين بتونس –سياسة الإغراء-؛ قام العديد منهم ببيع أراضيهم للتونسيين وهذا ما مكنهم من استرجاع العديد من المساحات الزراعية.

-نقص حدة المنافسة الأجنبية بالبلاد التونسية؛ وبالتالي قلت المنتوج الأجنبي بالأسواق الداخلية وهذا ما ساهم في عودة بعض الصناعات والمنتوجات المحلية وتحتل الواجهة التجارية من جديد.

-تكييف متطلبات الحرب مع متطلبات الصناعة العسكرية، وهذا ما أدى إلى انتاج الأسلحة والذخيرة على حساب السلع المصنوعة.

-بسبب سياسة التجنيد المطبقة على التونسيين والمعمرين على حد سواء؛ ظهر نقص فادح في اليد العاملة داخل تونس وهذا الأمر فتح الباب واسعا أمام الشعب التونسي داخل البلاد في الحصول على مناصب شغل وبالتالي تحسن الوضع الاقتصادي والاجتماعي بالنسبة للعديد من طبقات السكان التونسيين خلال الحرب.

ثالثا: السياسة الاستعمارية الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى وتداعياتها على الحركة الوطنية التونسية:

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، سارعت الإدارة الاستعمارية من جديد إلى تقوية سياسة التناقضات بين السكان التونسيين والفرنسيين (المعرين)، بالنظر إلى ضعفها الناجم عن الحرب العالمية؛ فخلالها خسرت فرنسا حوالي 14 ٪ من رجالها و30 ٪ من ثروتها الوطنية وبالتالي تعتبر المستعمرات الممون الهم لتدعيم؛ إعادة بناء البلاد عن طريق استغلال أكبر قسط من مواردها، لصالح الإدارة الاستعمارية ومن اهم هذه السياسات ما يلي:

1-السياسة الاقتصادية:

***العودة إلى استعمار الأراضي:** بسبب الحاجة الماسة للمواد الغذائية؛ من اجل سد حاجة سكان فرنسا، أعد المقيم العام الفرنسي "فلاندان"؛ مشروع أمر بموجبه زراعة كامل الأراضي البور التونسية، ومع بداية تطبيق هذا المشروع، الذي استهدف ما يقارب 3.5 مليون هكتار؛ حيث أثار موجة غضب وهيجان بين السكان التونسيين خصوصا الفلاحين وبعض مشايخ الطرق الصوفية، بسبب كون المشروع موجه ضدهم ولأنه منح مساحات شاسعة للمعمرين وسد الباب أمام الفلاحين التونسيين.

وبسبب هذه السياسة؛ خسرت سلطات الحماية قسما من الأعيان بما فيهم أولائك الذين عرفوا باعتدالهم وتعاملهم مع إدارة الحماية، وهذا ما يسفر عن تغير موقف البرجوازية التونسية بعد الحرب العالمية الأولى من سلطة الحماية.

***العودة إلى استيراد المنتجات المصنعة:** بفضل الحرب؛ عرف أصحاب الصناعات اليدوية والمحلية نوعا من الرفاه، الذي لم يستمر طويلا؛ فبانتهاء الحرب عادت السلع المستوردة الأوروبية والتي سرعان ما نافست السلع المحلية وهذا ما أدى إلى عودة المعاناة من جديد إلى أصحاب الصناعات، خاصة وأن السلع المستوردة أرخص من السلع المحلية.

كما أضر هذا الوضع الجديد بصغار التجار المحليين المروجين للسلع المحلية، وبسبب هذه الظروف أصبحت الأسواق المحلية التونسية أرضية ملائمة لنشاط الوطنيين التونسيين.

***سياسة القروض المالية:** تهدف هذه السياسة إلى استكمال التجهيز الأساسي لمتطلبات الاستعمار؛ والمطبقة أساسا لصالح المعمرين وثقيلة جدا على السكان التونسيين، إذ كانت تساعد على تنمية الاستعمار وبالتالي على انتقال الأراضي إلى أيدي الأوروبيين وما يؤكد ذلك، هو ترخيص القانون الفرنسي المؤرخ في 31 جويلية 1920م بمنح تونس 255 مليون فرنك من أجل التنمية، حيث خصصت إدارة الحماية حوالي 21 مليون فرنك لشراء الأراضي من جديد لصالح المعمرين

وحوالي 6 ملايين من أجل إنشاء عدد من المراكز العسكرية ومع تحميل ميزانية تونس تسديد القرض وفائدته، ولا يكون ذلك إلا بإثقال كاهل السكان بالضرائب.

*الزيادة في الجباية الضريبية: بسبب زيادة قيمة المصاريف الناجمة عن السياسة الفرنسية بالبلاد التونسية، بعد الحرب العالمية الأولى، عمدت الإدارة الفرنسية إلى رفع قيمة الضرائب القديمة وسن أخرى جديدة ولهذا الغرض نص أمر الباي الصادر في 20 ديسمبر 1919م على نظام جبائي جديد يثقل كاهل الأهالي بصورة خاصة، وهذا ما ترتب عنه ارتفاع نسبة التضخم وبالتالي تدهور قيمة العملة وارتفاع الأسعار وهذا ما تسبب في ظهور موجة جديدة لعضب السكان.

*غلاء المعيشة ورداءة المحاصيل الزراعية: عرفت البلاد التونسية؛ بعد الحرب ارتفاعا ملتهبا في أسعار المواد الفلاحية بسبب التأثير المزدوج لنقص المحاصيل والتضخم المالي مثل: كان سعر القنطار الواحد حوالي 28 فرنك سنة 1914م وفي سنة 1920م ارتفع ليصل إلى حوالي 100 فرنك، فنقص المحاصيل بسبب الجفاف مما ساعد على ظهور المجاعة ووباء التيفوس.

*ضريبة الدم: جندت فرنسا معظم الشباب التونسي –باستثناء اليهود وأصيلي مدينة تونس وعائلي أسر طلبة الزيتونة والحاصلين على شهادات فتح الدراسة الابتدائية الحاصلين على الإعفاءات بعض نظام القرعة– وأزمتهم بالخدمة العسكرية طيلة 3 سنوات ضمن القوات الاحتياطية.

وفي هذا الشأن تذكر المصادر أن فرنسا استطاعت أن تجند حوالي 80000 جندي وحوالي 30.000 عامل (أي حولي 110000) وفيما يخص عدد الجنود القتلى فقد أشارت الإحصائيات إلى حوالي 15000 قتيل ومئات الجنود الجرحى.

وغرم التضحيات التي قدمها الشعب التونسي، إلا أن سلطات الحماية لم تحرر النظام السياسي للبلاد وأبقت على سياسة الحصار والعنف والانسداد وهذا ما أدى إلى تفاقم غضب السكان وجعلهم أكثر تأثيرا بنداءات رجالات الحركة الوطنية التونسية.

2-السياسة الدينية والثقافية:

بعد أن بدأت سلطات الحماية؛ في تطبيق مشروع استعمار أراضي البور، ظهرت فئة البرجوازية العقارية وكبار شيوخ الطرق الصوفية؛ كفئة معارضة للمشروع بحجة المساس بأراضي الأحباس ومنحها للمعمرين، كما أن المشروع في نفس الوقت قد ضرب أهم مورد مالي لهؤلاء، رغم كونهم لم يكونوا معارضين للسلطة بل على العكس؛ ففي الكثير من الأحيان كانوا هم أداة تستخدمها الحماية.

وبفعل هذا الغضب والمعارضة التي قام بها هؤلاء –الطرق الصوفية والشيوخ-نجح رجال الحركة الوطنية التونسية في ضمهم إلى صفوفهم مما جعلهم مكسبا ثمينا لهم.

***سن الثلث الاستعماري وغضب النخبة المثقفة:** بعد نهاية الحرب أراد الشباب المثقف التونسي المشاركة في إدارة بلاده مع ضمان المساواة بينهم وبين الرعايا الأجانب، لكنهم سرعان ما أصيبوا بخيبة أمل نتيجة سن الغدارة الاستعمارية لقانون الثلث الاستعماري، لفائدة الموظفين الفرنسيين من أجل إغرائهم وتنمية الجالية الفرنسية أكثر وأكثر، كما ان هذا القانون قد رفع من أجورهم بحوالي 33 بالماءة وهذا مادى إلى ظهور تفاوت فادح بينهم وبين الموظفين التونسيين، مما ساعد رجالات الحركة في استمالتهم إلى صفوفهم.

رابعا: التأثيرات الغربية والمشرقية على إعادة بعث الحركة الوطنية التونسية:

1-مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسن:

والتي جاءت على اثر برنامج عرضه مجلس الشيوخ الأمريكي في شهر جانفي 1918م؛ للقضاء على أسباب النزاعات وتطبيق مبدأ القوميات مع الاعتراف بحق الشعوب الخاضعة للهيمنة الأجنبية وتقرير مصيرها وبلوغ الاستقلال.

ورغم إدراك زعماء الحركة الوطنية لهدف هذه المبادئ (أنها جاءت من أجل تحرير الشعوب الأوروبية الخاضعة للهيمنة الألمانية والنمساوية والمجرية) واستحالة تطبيقها على المستعمرات الفرنسية

والبريطانية، إلا أنها لاقت صدى عظيم لدى الرأي العام العالمي بالعموم وعلى مثقفي تونس بالخصوص.

2-ثورة أكتوبر 1917م:

أحدثت هذه الثورة تغييرا في ميزان القوى العالمية، إذ ظهرت قوة جديدة نافست انفراد القوى الرأسمالية، حيث تميزت بمناصرتها لقضايا التحرر وانتقادها لتصرفات القوى الامبريالية في المستعمرات، وهذه الحالة هي التي شجعت حركة الشباب التونسي على الانضمام إليها والنشاط ضمن مبادئها.

3-أحداث تركيا:

قد خلف انهزام الدولة العثمانية؛ ودخول جيوش الحلفاء إلى إسطنبول –التي تعتبر مركز الخلافة الإسلامية–جرحا عميق في نفوس التونسيين؛ الذين انشغلوا بعد الحرب بأخبار الشؤون التركية، أملين في نفس الوقت من عودة قوة الدولة العثمانية من جديد، خصوصا بعد بروز قوة مقاومة الشعب التركي على يد مصطفى كمال أتاتورك.

وهذا الامل هو الذي أدى بالتونسيين إلى القيام في 10 مارس 1920م، بمظاهرات واحتجاجات عامة بتونس كرد فعل عن احتلال الجيشين الفرنسي والإنجليزي لتركيا، وبصفة عامة فإن هذه التطورات التي ساهمت في دعم الشعور الوطني بتونس.

4-تحرير مصر:

لقد تابع الشعب التونسي والعديد من الوطنيين التونسيين باهتمام كبير؛ تطورات الحركة الوطنية المصرية طيلة الحرب العالمية وبعدها خصوصا بعد أن طالب رئيسها "سعد زغلول" بحق مصر في تقرير مصيرها وفق مبادئ الرئيس ويسلن وهي الخطوات التي سار عليها وطنيو تونس.

5-أحداث طرابلس:

لقد شجع ميثاق "النظام الأساسي" الممنوح لطرابلس سنة 1919م، من طرف إيطاليا لليبيين على البلاد التونسية على مطالبة فرنسا بتطبيق نفس الحقوق، التي منحتها إيطاليا لليبيين على البلاد التونسية، إذ أن هذا الميثاق يعترف بنوع من الاستقلال الداخلي لطرابلس –إعفاء الليبيين من الخدمة العسكرية وإصلاح قانون الإدارة والمجالس المنتخبة-.